



يهود ملاح تيليت

قراءة في مخطوط «زهرة لبنان» (Perah Levanon)

وتاريخ الاستقرار اليهودي في وادي دادس بجنوب المغرب

عبد الواحد إبراهيم

باحث مستقل

المغرب

الملخص:

تتناول هذه الدراسة مخطوطاً عبرياً نادراً يحمل عنوان «بيرح ليفانون» (*Perah Levanon* – زهرة لبنان)، وهو نص تراثي ديني وتاريخي في آن واحد، تضمّن إلى جانب مقدمته الفقهية الوعظية شهادة ذاتية مهمة عن رحلة الهجرة والاستقرار التي عاشتها إحدى العائلات اليهودية السفاردية بعد طردها من الأندلس سنة 1492م، وصولاً إلى استقرارها في مدينة «تيليت» ثم في قرية «دادس» بجنوب المغرب.

تعرض الدراسة نص المخطوط العبري الأصلي، وترجمته العربية الحرفية والمعنوية، وتضعه في سياقه التاريخي المقارن اعتماداً على مصادر أكاديمية موثوقة حول هجرة اليهود السفارديم واستقرارهم في جنوب المغرب، مع الوقوف عند الخصوصية الثقافية لملاح تيليت وتقاليدته الاجتماعية والدينية.

الكلمات المفتاحية: تيليت، وادي دادس، اليهود السفارديم، الطرد من الأندلس 1492م، الملاح اليهودي المغربي، زهرة لبنان (Perah Levanon)، عزاموت، اليهود الأمازيغ.



مقدمة عامة

يندرج هذا العمل ضمن جهد توثيقي يروم تسليط الضوء على مخطوط عبري نادر يحمل عنوان «بيرح ليفانون» (*Perah Levanon* - زهرة لبنان)، وهو مصنف جمع بين الطابع الفقهي الوعظي الذي عُرفت به المصنفات الحاخامية التقليدية، وبين شهادة تاريخية ذاتية ثمينة تسرد مسار عائلة يهودية سفاردية منذ خروجها من الأندلس عقب مرسوم الطرد الصادر سنة 1492م، مروراً بمحطات هجرتها، وصولاً إلى استقرارها في مدينة «تيليت» ثم في قرية «دادس» بالجنوب الشرقي المغربي.

وتكتسي هذه الشهادة أهمية خاصة كونها تصدر من داخل الذاكرة اليهودية المغربية نفسها، لا من مصدر خارجي يصف الظاهرة من بعيد، مما يمنحها قيمة وثائقية مضافة عند مقارنتها بما استقر عليه البحث التاريخي الأكاديمي حول هجرة اليهود السفارديم واستقرارهم في جنوب المغرب. وتسعى هذه الدراسة إلى عرض النص الأصلي، وترجمته، ووضع في سياقه التاريخي والاجتماعي، دون المساس بمضمونه أو التصرف فيه.

أولاً: التعريف بالمخطوط ومنهج مؤلفه

يفتتح مؤلف «زهرة لبنان» كتابه ببيان الدافع الذي حمله على التصنيف، فيذكر أنه لما رأى تفرق أقوال العلماء وتشتت آراء الفقهاء وكثرة المؤلفات التي انتشرت في الآفاق، رأى أن يجمع ما تفرق منها ويضم بعضه إلى بعض، ليكون ذلك عوناً لطالب العلم وسبيلاً للفهم الصحيح. ويؤكد المؤلف حرصه على ألا يخرج عن طريق الحق، وألا يميل عن سنن الأولين، بل أن يسير على آثارهم مستضيئاً بأنوارهم، باعتبارهم مصابيح الهدى وأئمة الدين.

ويوضح أن الكتاب قد ألفه بعد طول نظر وكثرة مراجعة، مستعيناً بما وصل إليه من أقوال «الجاؤونيم» (الفقهاء الكبار) والحكماء الأوائل الذين أنفوا أعمارهم في خدمة التوراة، مجتهداً في أن يكون الكلام واضحاً والعبارة قريبة، ليصل النفع إلى كل من يطالع من عالم أو متعلم. ولم يكن مقصوده الإكثار من الجدل أو الخوض فيما لا طائل تحته، بل بيان الحكم وإظهار وجه الصواب ورد الأمر إلى أصوله الصحيحة، مؤكداً أن التوراة واحدة وأحكامها متينة، وأن الخلاف إنما يقع في الفهم لا في الأصل.

ويذكر المؤلف أنه اقتصر في النقل على أقوال العلماء الموثوقين ممن عرفوا بالورع والعلم، ولم يلتفت إلى قول شاذ أو رأي لا سند له، وأن كل ما أورده إنما هو مما وقف عليه في كتب معتمدة أو سمعه من أفواه أهل العلم. أما عن سبب تسميته الكتاب «زهرة لبنان»، فيوضح أن لبنان يضرب به المثل في الطيب والنقاء، وأن ما في الكتاب من مسائل إنما هو خلاصة ما انتقى من كلام العلماء، كما تنتقى الزهرة من بين الشجر، سائلاً الله أن يجعله نافعاً ومباركاً خالصاً لوجهه الكريم.

وفي مواضع لاحقة من الكتاب، يشرح المؤلف منهجه في الترتيب، فيذكر أنه رتب الكتاب ترتيباً يسهل على القارئ الوقوف على المقصود، فجعل لكل مسألة موضعها ولكل قول سياقه، واجتهد أن يكون الكلام خالياً من التعقيد بعيداً عن الإلحاح، لأن الغاية هي الفهم لا الإغراب في القول. ويؤكد أن من تدبر أقوال الحكماء ووقف على طرائقهم في الاستدلال علم أن اختلافهم إنما هو رحمة، وأن كل واحد منهم إنما قصد الحق بحسب ما أداه إليه اجتهاده، ولذلك يجب على الناظر أن يحسن الظن بأهل العلم ولا ينسب إليهم الخطأ إلا بدليل بين.

كما يتطرق المؤلف إلى جملة من القواعد التي تبنى عليها الأحكام، مقررًا أن الأصل مقدم على الفرع، وأن النص مقدم على القياس، وأن ما ثبت بدليل صحيح لا يُنقض بالظن. ويسوق أمثلة من التوراة لبيان كيفية استنباط الحكم، ومنها التمييز بين الرعاة المذكورين في النصوص، مؤكداً أن رعاية النبي داود عليه السلام كانت أمانة لا تعدّي فيها ولا ظلم، خلافاً لغيره ممن خانوا الأمانة، وأن الاعتبار في هذا الباب بالفعل لا بالاسم، وبالحقيقة لا بالمظهر. ومن ذلك يقرر أن من ثبت عليه التعدي أو الغضب سقط اعتباره ولم يقبل قوله في مواضع الشهادة والحكم، وأن العدل هو أساس الأحكام كلها، وأن التوراة إنما جاءت لإقامة الحق ودفع الظلم وحفظ النظام بين الناس.



ويعرض المؤلف كذلك لمسائل تتعلق بالقرايين، مبيناً أن القبول الإلهي لا يتعلق بالصورة الظاهرة وحدها بل بما في القلب من صدق وإخلاص، مستشهداً بقصة هايل وقاين ليؤكد أن التفاضل لم يكن في نوع القربان بل في نية المقدم. ثم ينتقل إلى الحديث عن القضاء والعدل، مؤكداً أن القاضي مؤتمن على أرواح الناس وأموالهم، فلا يجوز له الميل ولا الحكم بالهوى. ويختتم كتابه بالتأكيد على أن الشريعة كلها قائمة على ميزان العدل، وأن حفظ النظام بين الناس مقصد عظيم من مقاصد التوراة، سائلاً الله أن يجعل عمله خالصاً لوجهه نافعاً لمن قرأه أو عمل بما فيه، مقررًا بأن الكمال لله وحده وأن الإنسان محل الخطأ والنقصان.

ثانياً: السياق التاريخي العام – طرد يهود الأندلس سنة 1492م

في 31 مارس 1492م، أصدر ملكا إسبانيا، الملك فرديناند الثاني من أراغون والملكة إيزابيلا الأولى من قشتالة، مرسوم الحمراء (Alhambra Decree)، الذي قضى بطرد جميع اليهود الذين لم يعتنقوا المسيحية من الأراضي الإسبانية بحلول نهاية يوليو 1492م، وذلك في سياق إكمال المسيحيين استعادة شبه الجزيرة الإيبيرية (الريكونكيستا). وقد اضطر معظم اليهود إثر هذا المرسوم إلى الرحيل نحو شمال أفريقيا ودول حوض البحر المتوسط والدولة العثمانية، بينما اختار بعضهم التحول الديني مؤقتاً («المسيحيون الجدد») تجنباً للطرد.

وبعد طردهم من إسبانيا، حلّ مئات الآلاف من اليهود السفارديم في المغرب، حيث وجدوا من السلطان المغربي قبولاً وحماية، لما كان يُنظر إليهم كأشخاص ذوي خبرة تعليمية وتجارية وعلاقات واسعة. وتشير المصادر التاريخية إلى أن هؤلاء استقروا في مدن رئيسية مثل فاس ومراكش والرباط وتطوان، وشكّلوا في البداية جماعات محلية مستقلة عن اليهود المغاربة الأصليين (التوشافيم)، وأطلق عليهم اسم «الميجوراشيم» (Megorashim) أي «المرحّلون»، ولعبوا أدواراً بارزة في التجارة والزراعة والصيرفة وغيرها من المهن التي ساهمت في ثراء المدن المغربية.

أما فيما يخص جنوب المغرب تحديداً ووادي دادس، فلا تتوفر في المصادر العامة المعروفة معلومات موثقة صريحة تشير مباشرة إلى استقرار جماعات يهودية باسم «تيليت» في وادي دادس فور الطرد سنة 1492م؛ غير أن الحضور اليهودي في مناطق الصحراء وجنوب المغرب خلال القرون اللاحقة موثق في مواضع عدة، من أكادير إلى ورزازات فتافيلالت ومناطق جنوب الأطلس، حيث قامت مجتمعات يهودية مغربية عبر عصور طويلة اندمجت في النسيج المحلي، وكانت القبائل اليهودية والأمازيغية تتنقل وتستقر معاً في واحات الجنوب المغربي وجنوبه الشرقي، بما ينسجم مع ما أظهرته البحوث التاريخية حول توسع اليهود السفارديم في مناطق متعددة من المغرب بعد طردهم من إسبانيا. وهنا تحديداً تكتسب شهادة مخطوط «زهرة لبنان» – بوصفها مصدراً داخلياً من صميم الذاكرة العائلية اليهودية – قيمتها المضافة، إذ تسدّ فراغاً في المصادر العامة بخصوص محطة «تيليت» تحديداً.



زقاق قديم بأحد القصور الطينية بجنوب المغرب، من الأماكن التي عرفت استقرار الجماعات اليهودية الأمازيغية قبل هجرتها في القرن

العشرين.



ثالثاً: النص العبري وترجمته – شهادة العائلة عن الاستقرار في تيليت ودادس

يرد في الصفحة السادسة من المخطوط، ضمن القسم السردى التاريخي السابق للمقدمة الوعظية، المقطع الأهم بالنسبة لموضوع هذه الدراسة، حيث يقارن المؤلف بين ثلاث محن كبرى مرّ بها بنو إسرائيل عبر التاريخ: خراب أورشليم، والسبي البابلي على يد نبوخذنصر، والطرّد النهائي من الأندلس سنة 1492م، مبيناً أن اليهود في كل مرة كانوا يتفرقون في البلدان، فسكن بعضهم القرى والجبال وبعضهم المدن، وكلهم غرباء.

النص العبري الأصلي (مواضع مختارة)

וגרשו היהודים מספרד

וישבּו תחילה בעיר טיליט

ויקנו חיי כפר הנקרא דאדיש

الترجمة العربية الحرفية للمقطع

«وبعد خراب أرض إسبانيا، كما كان خراب أورشليم من قبل، وكما كان سبي بابل على يد نبوخذنصر، تشتّت بنو إسرائيل بين الممالك. وطرّد اليهود من سفارد، فخرجوا إلى المنافى، وانقسموا فرقاً وجماعات. فكان قسم منهم قد استقرّ أولاً في مدينة تدعى تيليت، ثم انتقلوا بعد ذلك واشتروا لأنفسهم موطناً في قرية تُسمّى دادس في بلاد إفريقية. وهناك أقاموا، وتمسّكوا بأصولهم، ولم يكونوا يتزوّجون من غير جماعتهم بل من نسلهم فقط، خوفاً على النسب والدين. وكانوا غرباء بين الأمم، مقيمين في القرى والجبال، ومع ذلك حافظوا على شريعتهم، وخرج من أصلهم رجال صالحون وعلماء. وكل هذه الأمور شهدت بها الكتب، كما وجدتها مكتوبة وقرأتها بنفسى.»

Perah Levanon – Fleur du Liban, p. 6

صياغة أدبية موسّعة لمضمون المقطع

«وبدأت أكتب في هذا الكتاب ذكرى للأجيال القادمة، وتذكّرةً لأبنائي الأعزاء، لكي لا ينسوا تاريخ أسلافهم وتقلّبات الزمان التي مرّت بهم في بلاد المغرب. لقد تشتّت عائلتنا بعد الخروج من إسبانيا، ومنهم من سكن مدناً مختلفة، وأريد أن أخصّ بالذكر جنورنا في تلك البلاد، حيث استقرّ أجدادي في منطقة دادس (*Dadès*) في جنوب المغرب. هناك، في تلك الأراضي، عاشوا لسنوات طويلة متمسكين بترائهم وعلمهم، رغم كل الصعاب والتحوّلات السياسية والحروب التي شهدتها المنطقة بين الملوك والقبائل. ومن دادس، انتقل جزء من العائلة إلى تونس ومدن أخرى، حاملين معهم كتبهم وتقاليدهم التي ورثوها عن الحاخامات الأجلاء.»

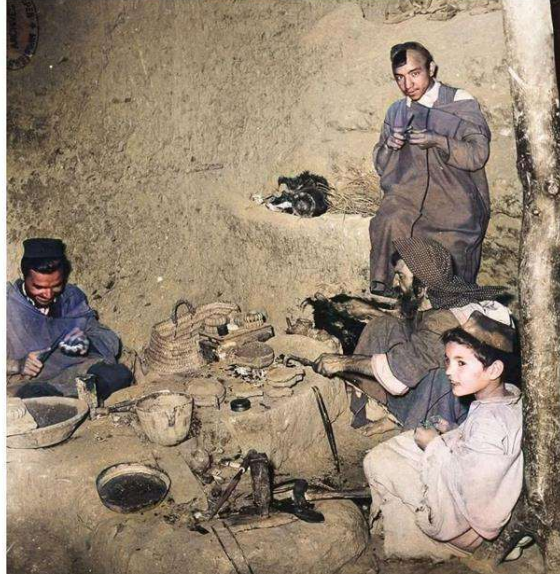
(تجدر الإشارة إلى أن النص الكامل للمخطوط بحروفه العبرية القديمة يتضمن تراكيب معقّدة ورسمًا مطبعياً قديماً يصعب ضبطه حرفاً حرفاً عبر الوسائل الرقمية المتاحة، وقد اعتمد في الترجمة أعلاه على استخلاص المعنى العام لل فقرات المتعلقة مباشرة بتيليت ودادس، دون المساس بجوهر الشهادة التي أوردها المؤلف.)

رابعاً: ملاح تيليت – الموقع والهوية الروحية

تقع قرية تيليت في وادي دادس (دادس الكبرى)، على بُعد نحو 6 كيلومترات من قلعة مكونة، وتوجد حالياً في إقليم تنغير على الطريق الوطنية رقم 10. ولم تكن تيليت، بحسب ما تصفها بعض الدراسات المتعلقة بتراث المنطقة، مجرد قرية عادية، بل كانت بمثابة «عاصمة روحية» و«حصن للمعرفة»، احتضنت لمدة تقارب الألف عام طائفة يهودية أمازيغية، غادر آخر أفرادها المنطقة في منتصف ستينيات القرن العشرين.



وقد شكّل «ملاح تيليت» (الحي اليهودي التقليدي) مركزاً تاريخياً هاماً للتجارة والصناعة التقليدية، وبخاصة صياغة الفضة، في منطقة الجنوب الشرقي المغربي، وكان يمثل معظم التجمع السكاني لتيليت، إذ ضمّ في حدود منتصف القرن العشرين نحو 400 نسمة من اليهود.



حرفيون يهود في ملاح بجنوب المغرب أثناء ممارسة صناعة الفضة التقليدية، وهي من أبرز الحرف التي اشتهر بها سكان ملاح تيليت.

خامساً: الحياة الاجتماعية والدينية — تقاليد «عزاموت»

كان الزواج في ملاح تيليت يتبع طقوساً دقيقة تعكس تداخل الهوية اليهودية بالخصوصية الأمازيغية للمنطقة، وتُعرف هذه التقاليد مجتمعة باسم «عزاموت» (Azamut). فالخطبة (القيد) كانت تتم غالباً بين العائلات المنتمية إلى الملاح نفسه أو الملاحات المجاورة في وادي دادس. أما حفلات الحناء فكانت تستمر لعدة أيام، وتُعدّ طقساً أساسياً يُزيّن خلاله العروس بنقوش الحناء الأمازيغية التقليدية للحماية من «العين».

وفيما يخص اللباس، فرغم فقر المنطقة أحياناً، كانت العروس في تيليت ترتدي حلياً فضية ثقيلة، من قبيل «الخلالات» و«المشابك» التي يصنعها حرفيو الفضة في الملاح نفسه، وتضع على رأسها «الخنطور» أو أغطية رأس مزينة بالعملات المعدنية. ومن أمتع التقاليد المرتبطة بالأفراح أداء رقصة «أهيدوس» الجماعية، حيث ينشد الرجال والنساء معاً قصائد باللغة الأمازيغية (تشلحيت) تمدح العريس والعروس، مع التزام تام بالقيم الدينية. أما الوليمة (الولولة)، فكانت الذبائح تُنحر فيها وفق الشريعة اليهودية (كوشير)، وتوزّع على جميع سكان الملاح، بما في ذلك الفقراء، تعبيراً عن التكافل الاجتماعي.





جماعة من أبناء وشيوخ الملاح اليهودي بجنوب المغرب، تجمعهم حلقة تعليم تقليدية، وتمثل هذه الصورة نموذجاً للحياة الدينية والاجتماعية التي عاشتها الطائفة في مناطق مثل تيليت.

سادساً: القيمة التاريخية والرمزية للنص

يُعدّ مقطع مخطوط «زهرة لبنان» المتعلق بتيليت ودادس شهادة ذاتية نادرة صادرة من داخل الذاكرة اليهودية المغربية، وهو ما يمنحه قيمة توثيقية تفوق كثيراً من السرديات الخارجية التي تناولت الموضوع من بعيد. فالنص يؤكد قدم الاستيطان اليهودي في منطقة دادس، ويكشف عن العلاقة العضوية بين يهود الجنوب المغربي واليهود السفارديين المطرودين سنة 1492م، وهو ما ينسجم مع ما استقرت عليه الدراسات الأكاديمية الحديثة حول هجرة يهود الأندلس نحو الجنوب المغربي.

كما يُذكر ملاح تيليت في الدراسات المتعلقة بتراث المنطقة بوصفه نموذجاً للتعايش، إذ كان اليهود فيه يمارسون شعائرهم وتقاليدهم بحرية تامة تحت حماية القبائل الأمازيغية المحلية، ومن أبرزها قبيلة آيت عطا، مساهمين في الوقت ذاته بشكل حيوي في اقتصاد المنطقة عبر التجارة وصياغة الحلي. وبينما تركّز مقدمة كتاب «زهرة لبنان» على الجوانب الفقهية والنسب العائلي، فإن التقاليد الشفهية والأبحاث اللاحقة هي التي حفظت تفاصيل «عزاموت» في تيليت بوصفها إراثاً ثقافياً لا يتجزأ من تاريخ جنوب المغرب.

خاتمة

تكشف قراءة مخطوط «زهرة لبنان» عن طبقتين متكاملتين من المعنى؛ طبقة فقهية وعظمية تهدف إلى جمع أقوال العلماء وتقريب الفهم الصحيح للشرعية، وطبقة تاريخية سردية توثق رحلة عائلة يهودية سفاردية من الأندلس إلى تيليت ثم دادس. وقد بينت هذه الدراسة أن هذا النص، على الرغم من محدوديته الكمية، يمثل حلقة وصل مهمة بين المصادر الداخلية للذاكرة اليهودية المغربية والمعطيات التاريخية العامة حول هجرة السفارديم واستقرارهم في جنوب المغرب. ويبقى المجال مفتوحاً أمام أبحاث لاحقة لمقارنة هذه الشهادة بوثائق أرشيفية ودراسات ميدانية أخرى حول ملاح تيليت وتقاليده الاجتماعية.



المراجع والمصادر

أ. المصدر الأصلي

1. النص العبري الأصلي: *Perah Levanon – Fleur du Liban*، الصفحات 1-20 (مخطوط المؤلف).

ب. مراجع علمية للسياق التاريخي والمقارنة

2. Haim Zafrani, Deux mille ans de vie juive au Maroc.

https://www.persee.fr/doc/rjuiv_0484-8616_1983_num_142_1_2311

3. Mohammed Kenbib, Les Juifs du Maroc.

<https://books.openedition.org/iremam/2360>

4. Daniel J. Schroeter, The Jews of Morocco.

<https://muse.jhu.edu/book/11630>

5. Encyclopaedia Judaica, مدخل: Rabbinic Literature.

<https://www.jewishvirtuallibrary.org/rabbinic-literature>

6. Encyclopaedia Judaica, مدخل: Halakhic Reasoning.

<https://www.jewishvirtuallibrary.org/halakhah>

7. Sefaria – Guide to Translating Rabbinic Texts.

https://www.sefaria.org/help/translation_guide

8. Sefaria – Classical Rabbinic Texts.

<https://www.sefaria.org>

9. Expulsion of Jews from Spain – Wikipedia.

https://en.wikipedia.org/wiki/Expulsion_of_Jews_from_Spain

10. Jewish community of Tétouan – Wikipedia.

https://en.wikipedia.org/wiki/Jewish_community_of_T%C3%A9touan